حنظل وتفاح !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

سقيتني يا دنيا بكأسيك في يوم واحد ! وكنت شاعرة حاذقة حين قدمت إلى هاتين الكأسين في وقت يكاد يكون واحداً ؛ حتى امتزجت في مذاق المرارة بالحلاوة ... وكنت صديقة مخلصة ناصحة في معاملتي حينذاك

قدمت إلى كأس الحنظل حين توجهت معزياً إلى عش ذي أفراخ زُغب طارت عنه صاحبته وبانيته: أمهم الحمامة الوديعة التي أتت بهم خمسة متلاحقين ، ثم مضت عنهم وخلّت بينهم وبين أبيهم ...

وجلست أنظر فيهم من الصغير إلى الكبير — وسنه ثلاث عشرة سنة — ثم أحادث أيام الواجم الباسم الحمول ... ثم أطير بخيالي فجأة إلى قبر الحمامة الولود ... ثم أرجع إلى نفسي أخزن فيها قوتها من بيدر الحزن الرفيع الذي أمامي ، لأن مادة نفسي في مجاعتها ...

* * *

قال لي الفرخ الأصغر : أمي سافرت إلى بعيد ، وسترجع ، ومعها حلوى ولعب ...

فقال الذي يليه : لا ، أمي ماتت وبكيت عليها مع النسوان . قال هذا وهو يضحك ، فطفرت الدموع إلى عين الأكبر وحدرت ، فخرج من الحجرة ليخفي البكاء وخرج وراءه أبوه ، ووقفت أخته على باب بيتنا وبينها ، وارتسمت علامات وجوم متدرجة على وجوه الأطفال بحسب أسنانهم وإدراكهم ، وبقي الأصغر يضحك وأنا معه أضحك بدموع ، وأرشف من الكأس المرة!

ماذا عسى الأب أن يقول لابنه الأكبر الباكي في مثل هذه الحالة ليصرف عنه البكاء ؟ أيقول له إن أمك مسافرة وسترجع إليك بحلوى ولعب ؟ لا يصدق ... أيقول له : سلم لله لأن الموت آخر الحياة ، وهو منجل يحصد العامل والباهل ... وما إلى ذلك من « أجرومية » التعازي ؟ لا يفهم ذلك لأنه لم يبلغ مبلغ من تطفله هذه الأفكار ... إذاً فالأولى أن يتركه حتى يذهب عنه وجدان الحزن فتجف دموعه وحدها

وشعرت كأن روح الأم حضرت البيت في ذاكرة الأطفال إزاء هذه الأزمة النفسية فبكى قلبي ، وتكلفت المبالغة في ملاعبة الأصغر حتى ألهيه عن أخيه وعن نفسي ، وجلست برهة ثم نهضت مثقلا ...

لو أننا نخدع في إدراك المصائب كما خدع الأصغر ، أو لو أننا ندركها باردة بسيطة كما أدركها الذي يليه ، أو لو أننا ندركها إدراك ذلك الأب الصبور الحول العارف بقوانين الحياة ، لكان في هذا نجاة من وطأتها على نفوسنا . أما أن ندركها إدراك كبير هؤلاء الأطفال من غير علة ولا تعلّة وعزاء ، فذلك أشد الألم ، لأنه ألم المصيبة وألم الحيرة في إدراك أسبابها وعلاجها . هذه كأس الحنظل ...

وأما الأخرى فقد تناولتها من يد الدنيا في عشية ذلك اليوم نفسه في عش يُبنى لفتى وفتاة ... والمدعوون جالسون كل منهم باش يرسل نكتة أو يضحك من نكتة ، وفرح الحياة يترقرق في الوجوه ترقرق الشراب في كؤوس بلورية

وكان على شفتي بقية من كأس الحنظل التي شربتها في الصباح فوجدت طعمها فيما قدم إلي من شراب العرس . وهنا أدركت أن دنياي شاعرة حاذقة، وأنها ابتدأت تصاحبني بصدق . وشربت كأس التفاح وأنا أجمجم بكلمات خفية كما يجمجم المجوس على الطعام ... وكانت هذه الكلمات قصائد وصلوات تلاها في حالتي ذاك المزيج الذي ذقت فيه خلاصة صنعة الدنيا الشاعرة .. والذي تحولت قطراته إلى كلماتها الآتية :

«إشرب ! إشرب ! ولا تخش السكر من هذه الكأس التي مزجتها لك يدي ! فإن ما فيها من أضداد تصطرع ، كفيل بأن يترك عقلك دائماً في غاية الصحو ... إشرب ولا يحاول لسانك أن يميز بين عنصري هذا المزيج فيُبَلْبَل ولا يستطيع البيان ... إشرب وانظرني دائماً في قرارة الكأس متجسدة عارية لعينيك ...

إشرب واحتفظ بمذاق هذا الشراب دائماً حتى تستطيع تقدير الطعوم الأخرى ...

إشرب واحذر أن تحدث من يحيطون بك في مجلس العرس

بما تجد فى كأسك فيقولوا عنك : « هذا سكران بهذى ... »

* * *

« طالما شربتَ من كأس الحنظل وحدها حتى سكرتَ بالألم فوقعت منك الكأس وتحطمت ...

وطالما شربت من كأس التفاح وحدها حتى سكرت من اللذة فوقعت منك الكأس وتحطمت ...

وقد تعودتم أن تضيفوا لفظة « السكر » إلى اللذة وحدها . ألا وإن للألم سكراً لا يقل شناعة وطيشاً وهذياناً وسفهاً عن سكر اللذة !

أنظروا إلى أبى العلاء المعرى ! إنه عندي لا يقل إثماً عن الأعمى الآخر بشار ، ولا عن أبى نواس !

لقد غرق المعرى فى كأس الألم وغرق الآخران فى كأس اللذة ففقدتهم جميعاً ...

لقد أتى المعرى بهذيان كثير جعله يخرج عن دائرة الحياة العاملة ويعيش جامداً على هامشى أنا الحركة الدائمة المتيقظة المنتظمة، يرصدنى من بعد فى محبسه بعينيه المغلقتين ، ويلمسنى فى خشونة وجهه المجدور ، ويذوقنى فى طعامه المحدود ، ويستنشق أجوائى فى محبسه الضيق الخانق ، ويرانى عدماً وفقداً لأنه أنهى حبل النسل الذى تناهى إليه من آدم ... فهذى فى كثير ولم يميز بين كثير من حقائق وأباطيلى وحلاوتى ومرارتى وأزهارى وأشواكى ، وكان الحرمان المطلق جذوة شعره وباعث سكره ...

ولقد أتى الآخران بالهذيان المعهود لكم من سكارى اللذة الآثمة ، وما زالا كذلك حتى ارتعشت يداهما وعجزتا عن حمل الكأس الفاتنة

رفع أبو العلاء الكأس طافحة بماء الحنظل لا يرى لها لوناً ولا يشم رائحة وليس له نديم . وقد طال وقوف الكأس على يديه حتى ساغت فى حلقه على مرارتها ، وشمشمها بالظلام الدائم الساكن فى عينيه . تمر به مواكب الحياة بجليلها وحقيرها وجميلها وقبيحها فيراها من سكره بآلامه ، جنازة موتى وكومات أنقاض ... برغوثها كشحاذها يستحق الاحسان والاطلاق ، وقرُّوجها كشبلها يستحق الاجلال والخشية ، وحشراتها وبهائمها تستحق الحياة الدائمة كانسانها ...

أليس هذا هذياناً كهذيان أبى نواس حين يرفع كأسه طافحة بماء العنب مشمشمة بنطاف دجلة وسناء الضحى ونور البدر ، يصطبح ويغتبق ويعبث بحرمات الحياة فى شغل عن دنيا الآلام الرفيعة والأمجاد والوصاية على مقدرات الأمم حتى « تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق » كما قال هو !

بلى ! إنهما وجهان للسكر فى الحياة بادمان الشراب ذي العنصر الواحد الذى يجعل المدمن ينظرني من جانب واحد »

* * *

كذلك كانت الدنيا تحدث نفسى فى مجلس بناء عش جديد بعد مجلسها فى العش المنهدم . ولم أشعر بأن نفسى بلغت من الفقه والحكمة إلى حد أن تأكل التفاح بشفتين عليهما مرارة الحنظل كما شعرت بها فى ذلك المجلس !

ولقد صحوت بعد ذلك من السكر المطلق بالألم كما صحوت من السكر المطلق باللذة . وسآخذ بوصية دنياي الصديقة الشاعرة لأظل دائماً يقظان صاحياً غير مخمور بنشوة ولا لوعة .

عبد المنعم خلوف

منتخبات من بلاغة الغرب

الجزء الأول

للأستاذ محمد كامل حجاج

... وكيف أنت ابن الغاب الذى يسير فرحا مرحا تداعب الصدى وتعدو وراء الطير وبظلك الغمام وبرويك الينبوع بزلاله البارد

أنت الذى تيمتك الطبيعة بمحاسنها حتى خلا قلبك من كل شيء تصنعه يد الانسان. وتغنى متهللا كالطير فى سمائه وأنت مبلل الخدين بالندى تود أن تلج هذه الدار المشؤومة المحتقرة

اهبط مع شمس الصباح بهوا لم تكد تنتهى فيه وليمة الخلات لتدنس شفتيك النقيتين بكأس ابتذلتها الرفاق والاخوات وتأكل فضلتهم الفاسخة المسمومة ؟

أتود أن تقع فى مهاوى الفسق بالنظر إلى عينيها اللتين أذبلهما السهر وذهب بطلاوتها المهر ؟ فاتق الله فى عينيك المزريتين بصفاء السماء وشعرك البهى المسجدى

فرانسوا كوبيه